Fyodor Dostoevsky

دوستويفسكي

فريق
متميزون
E-BOOK

Ci_tlgJ

حلم رجل مُضحك

ترجمة: نرمين جمعة

عصير الكتب

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

حلم رجل مضحك

قصة مترجمة (١٨٤٨)..

الكاتب: ديستويفسكي
ترجمة: نرمين جمعة

حلم رجل مضحك

نُشرت هذه القصة أول مرة في كراسة شهر نيسان (أبريل) 1877 من «يوميات كاتب» (الفصل الثاني)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- حكاية عجيبة

أنا رجل مضحك. يقولون الآن إني مجنون يكون هذا لقباً أعلى لو أنني ما زلت في نظركم مضحكاً. لكنني لن أزعل بعد الآن. فجميع الناس لطفاء في معاملتي، حتى حين يستهزئون بي ويتهكّمون عليَّ، بل هم حين يستهزئون بي ويتهكمون عليَّ، يبدو كأنهم ألطف وأرقّ. لولا أنني أشعر بحزن شديد حين أتأملهم، لسرني أن أشاركهم الضحك، لا على نفسي، بل حرصاً على أن أسرَّهم. إنني أحزن حين أرى أنهم لا يعرفون الحقيقة، الحقيقة التي أعرفها أنا ما أشقّ أن يكون المرء هو الوحيد الذي يعرف ولكنهم لن يفهموا. لا، لن يفهموا.

في الماضي كان يؤلمني كثيراً أن أبدو مضحكاً وأنا لم أكن أبدو مضحكاً، بل كنت مضحكاً فعلاً. لقد كنت طول حياتي مضحكاً، وأنا أعلم أنني وُلدت مضحكاً في أكبر الظن. لعل سنِّي كانت سبع سنين حين علمت أنني مضحك. ثم درست بعد ذلك في المدرسة الثانوية، وفي الجامعة، فكنت كلما أوغلت في الدراسة مزيداً من الإيغال علمت مزيداً من العلم أنني مضحك. حتى لكأن علمي الجامعي كله لم يوجد إلا ليبرهن ويشرح لي إنني مضحك كلما إزددت تعمقاً به، وتوغلاً فيه. وكان شأن الحياة كشأن العلم في هذا. فكنت، سنةً بعد سنة، أزداد يقيناً بأنني أبدو شخصاً مضحكاً من جميع النواحي. لقد ضحك مني أحد واستهزأ بي جميع الناس في كل مكان وكل زمان. ولكن ما من أحد منهم خطر بباله أنه إذا وجد فى هذا العالم إنسان يعرف أكثر من سائر الناس أنني مضحك، فهذا الإنسان هو أنا. لذلك كنت أشعر بنوع من الأسف والحسرة حين أرى أن أحداً لا يخطر له هذا على بال. والذنب في هذا ذنبي، لأن خيلائي منعتني دائماً من الإعتراف بسرِّي. وكانت هذه الخيلاء تزداد مع تقدّمي في السن، فلو إتفق أن إنسقت في يوم من الأيام فإعترفت لأحد من الناس أياً كان، أنني رجل مضحك لهشّمت رأسي بطلقة مسدس في مساء ذلك اليوم نفسه. لطالما تعذبت أثناء المراهقة كنت أتصوّر أنني لن أستطيع أن أقاوم، وأنني سأنساق مرةً على حين فجأة، فأعترف بالأمر لرفاقي. ولكنني حين صرت شاباً هدأ بالي واطمأنَّت نفسي لسبب أو لآخر، رغم أني كنت أزداد إقتناعاً بشذوذي الرهيب سنةً بعد سنة، وما ذلك إلا لأنني ما زلت إلى هذا اليوم أجهل لماذا وكيف! لعل مردَّ ذلك إلى تلك الكآبة الواسعة التي إستولت على نفسي في أعقاب ظرف يفوقني كثيراً، ألا وهو إقتناعي، الذي أصبح راسخاً مستقراً، بأن كل شيء في هذه الحياة الدنيا «ليس له شأن». كنت أشتبه في ذلك منذ مدة طويلة جداً، ولكنني إقتنعت به إقتناعاً كاملاً وأيقنت منه يقيناً تاماً على حين فجأة. أحسست بغتةً أنني لن يهمني ألّا يوجد العالم أو لا يوجد شيء في أي مكان، فلو حدث هذا لما أكترثت له ولا حفلت به. وأخذت أدرك وأحسّ بأن لا شيء في نظري موجود في حقيقة الأمر. كان قد لاح لي دائماً حتى ذلك الحين أن أشياء كثيرة قد وُجدت قبلي. فأدركت في تلك اللحظة أن لا شيء كان له وجود من قبل، أو قل إنه لم يكن ثمة إلا مظاهر. وإقتنعت شيئاً فشيئاً بأنه لن يوجد شيء أبداً. فأصبحت عندئذ لا أغتاظ من الناس ولا أحنق عليهم وصرت آخر الأمر لا أكاد ألحظهم. وقد تجلّت هذه الحالة النفسية في ظروف من الحياة هي أتفه الظروف: فكان يتفق لي مثلاً وأنا سائر في الشارع أن أصطدم بالناس؛ ليس معنى هذا أنني أكون مستغرقاً في فكرة من الأفكار، فقد أصبحت في ذلك الحين لا أفكّر في الأشياء التي ينبغي أن أفكّر فيها، لأن الأمور جميعاً قد إستوت في نظري، فلست أحفل بشيء، وتركت حتى الإهتمام بحل المشكلات التي تعرض لفكر المرء، ولم أحل منها مشكلة واحدة بل لا يعلم إلا الله هل عرضت لفكري

مشكلات أصلاً. فمن قلة إكتراثي، ذهبت المشكلات أدراج الرياح. ولكن ها أنا ذا أعلم الحقيقة. لقد إنكشفت لي هذه الحقيقة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي، في اليوم الثالث من ذلك الشهر على وجه الدقة، فأصبحت ماثلة في ذاكرتي منذ ذلك الحين كلّ لحظة.
حدث ذلك في ليلة مظلمة، فى ليلة كانت أحلك الليالي ظلاماً. كنت عائداً إلى بيتي في نحو الساعة الحادية عشرة. أذكر ذلك. وكنت أفكّر في أنه يستحيل على المرء أن يرى ليلة أحلك ظلاماً من هذه الليلة. وكان المطر قد إنهمر طوال النهار، وكان مطراً من أشد الأمطار برداً وكآبة بل كان مطراً فيه نوع من التهديد للبشر والعداء لهم ... أذكر ذلك ... ثم إذا هو ينقطع عن الإنهمار فجأة، في نحو الساعة الحادية عشرة، وإذا برطوبة شديدة ترتفع من الأرض، رطوبة أشد وأبرد من الرطوبة التي كانت منتشرة أثناء إنهمار المطر. كان نوع من بخار يفوح من جميع بلاط الشارع، ومن كل زقاق، حين تسرِّح طرفك في البعيد، فترى الحارة من أولها إلى آخرها. وبدا لي فجأة أن المرء يقل إحساسه بالحزن إذا إنطفأت مصابيح الغاز في كل جهة من الجهات، فإلى هذا الحدِّ كانت أضواء مصابيح الغاز تُحزِن القلب بإلقائها الضوء على هذا كله. لم أكن قد تعشّيت في ذلك اليوم. وقد قضيت السهرة عند مهندس بصحبة رفيقين له. فكنت أثناء السهرة صامتاً لا أتكلّم، فلا بد أنني أضجرتهم. وقد تحدثوا في أمور مثيرة، ثم إذا بالغضب يستولي عليهم. ولكنهم كانوا في الحقيقة غير مكترثين - رأيت ذلك رؤية واضحة - وكانوا لا يتحمّسون ذلك التحمّس إلا شكلاً بغير مضمون. فإذا أنا أقول لهم فجأة: «يا سادة، حقيقة الأمر أنكم غير مكترثين»، فلم يغضبوا، ولم يزيدوا على أن ضحكوا لسماع هذه الكلمات. وقد قلت لهم ذلك بلهجة لا تحمل أي معنى من معاني اللوم، ولم أقل ما قلته إلا لأن الأمر كان يبدو لي غير مثير للإهتمام أو الإكتراث، وقد لاحظوا قلة إكتراثي، فإعترتهم نوبة مرح، وطفقوا يضحكون.
حين دارت في رأسي تلك الفكرة عن ضوء مصابيح الغاز وأنا في الشارع، رفعت عينيَّ نحو السماء. كانت قبة السماء كلها تمتد مظلمة ظلاماً رهيباً. ولكن المرء يستطيع أن يميِّز فيها مزق السحائب تمييزاً واضحاً، وأن يرى في هذه السحائب بقعاً سوداً عميقة. وبينما كنت أنظر في هذه السحائب إذ لمحت في إحدى تلك البقع نجمة صغيرة، فأخذت أتأمّلها محدِّقا. ذلك أن تلك النجمة قد أيقظت في نفسي فكرة. قررت أن أنتحر في تلك الليلة نفسها. كنت قد عزمت على الإنتحار منذ شهرين، فإشتريت رغم شدة فقري، مسدساً رائعاً لقّمته في ذلك اليوم نفسه. وإنقضى شهران والمسدس لا يزال نائماً في الدُرج. ولكنني بلغت من قلّة الإكتراث بأي شيء أنني أصبحت أشتهي أخيراً أن تأتي الدقيقة التي يبدو لي فيها الإنتحار جديراً بالإكتراث. لماذا؟ لا أدري. وصرت عائداً إلى بيتي في الليل، يخطر ببالي أن أطلق الرصاص على رأسي. وأخذت أنتظر أن تجيء اللحظة الملائمة المناسبة. وها هي النجمة التي أراها في السماء توحي إليَّ بفكرة: أن أنفِّذ الليلة ما عزمت عليه، «حتماً». فإذا سألتني لماذا أيقظت تلك النجمة الصغيرة هذه الفكرة في نفسك، لأجبتك لا أعرف ذلك معرفة تامة.
وفي تلك الأثناء، بينما كنت أنظر في السماء، إنما أمسكت تلك كلما سرت البنت الصغيرة كوعي. كان الشارع مقفراً فى تلك الساعة، أو قل إنه قد أخذ يقفر فلا يكاد يمر فيه أحد. كان هناك حوذي يغفو على مقعده. إن البنت الصغيرة في نحو الثامنة من العمر. رأسها مغطى بمنديل، ترتدي ثوباً رثًّا، وكان الماء يسيل عليها. ولكن بصري وقع خاصة على حذاءيها المثقوبين اللذين يتسرب منهما الماء إلى قدميها. ما زلت أتذكّر هذه الواقعة إلى الآن. لقد خطف هذان الحذاءان إنتباهي أكثر من أي شيء آخر. وأخذت البنت الصغيرة تشدني من كوعي منادية مستنجدة. كانت لا تبكي. وكانت تناديني متقطعةً

الصوت، موعوعة بكلمات تعجز عن النطق بها بسبب البرد الذي كان يجعلها ترتجف إرتجافاً شديداً. كانت تبدو مذعورة من شيء ما، وتصيح يائسة: «أمي، أمي العزيزة!». إلتفتُ إليها، ولكنني لم أقل لها كلمة واحدة، وتابعت سيري. ركضَت ورائي وشدتني من ذراعي، بينما كان يخرج من حلقها صوت أجش أبَحّ، هو ذلك الصوت الذي تسمعه من الأطفال المذعورين واشياً بما إعتراهم من كرب ويأس. إنني أعرف هذه اللهجة. وفهمت من وعوعَتها، رغم عدم إشتمالها على كلمات ملفوظة، أن أمها تحتضر في مكان ما، أو أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث لها في هذه اللحظة، فركضت تبحث عن إنسان أو شيء يغيث أمها. ولكنني لم أتبعها وأكثر من ذلك أنه خطر ببالي فجأة أن أنهرها وأطردها. قلت لها في أول الأمر إن عليها أن تستنجد بشرطي. ولكنها سرعان ما ضمَّت يديها الصغيرتين إحداهما إلى الأخرى ضارعة مبتهلة، وانفجرت تبكي لاهثة، وظلّت تسير إلى جانبي لا تتركني، فلم يسعني إلا أن أشتمها قارعاً الأرض بقدمي. فلم تزد على أن تصيح قائلة: «سيدي، سيدي ...»، ثم تركتني فجأة لتقطع مسرعة كالسهم، ذلك أن رجلاً آخر ظهر على الرصيف المقابل، فلا شك أنها تركتني لتركض إليه.

صعدت السلم حتى بلغت مسكني الذي يقع في الطابق الرابع. إن المسكن شقّة مفروشة يقيم فيها مستأجرون مختلفون. وغرفتي في هذه الشقة صغيرة فقيرة، ليس لها من نافذة إلا نصف كوَّة. أثاثي ديوان مغطى بقماش مشمَّع، ومائدة عليها كتبي، وكرسيّان، ومقعد قديم متقوّض، لكنه من طراز فولتير. جلست وأشعلت الشمعة واسترسلت في التفكير. وكان فجور يملأ الغرفة المجاورة في الجهة الأخرى من الحاجز. إن هذا الفجور قائم منذ يومين فالشخص الذي يعيش في تلك الغرفة كابتن، محال على التقاعد جاءه زوار أوغاد أوباش يبلغ عددهم زهاء عشرة، وطفقوا يشربون مفرطين، ويلعبون «الفرعون» بمجموعة قديمة عتيقة من ورق اللعب. وقد نشبت بينهم مشاجرة في الليلة الماضية، وعرفتُ أن إثنين منهم ظلا يتضاربان مدة طويلة، وكان يمكن أن تَشْكُوهم المؤجِّرة، ولكن الكابتن كان يُرعبها. ولم يكن في البيت مستأجرون آخرون إلا سيدة هزيلة، نحيلة، ضامرة، هي أرملة ضابط من الضباط لها ثلاثة أطفال صغار، فما إن ساقتهم المقادير إلى هذا المسكن حتى مرضوا جميعاً. وكان الأولاد وأمهم يخافون الكابتن خوفاً يبلغ من الشدة أنهم يظلون يرتجفون ويصلّون طوال الليل. حتى إن أصغر الأولاد قد إعتراه من ذلك ما يشبه أن يكون نوبة عصبية. وكنت أعلم أن هذا الكابتن يتحرّش بالمارة على طول شارع نفسكي مستعطياً منهم صدقَة. وما كان لأحد أن يعهد إليه بأي عمل لو سعى هو إلى الحصول على العمل. ومع ذلك فإن هذا الكابتن (ومن أجل أن أسوق هذه الواقعة إنما أجيء على ذكره)، لم يُثِر في نفسي أي شعور بالنفور منه والكره له، وقد إنقضى على سكناه في هذا البيت شهر كامل. صحيح أنني منذ اليوم الأول قد تحاشيت أن تقوم بيني وبينه صلة، ولو قد جالسته لسئِم صحبتي على كل حال. وإنما أحب أن أذكر أنني كنت لا أكترث ولا أبالي، مهما تكن الجلبة التي يُحدثها هو وصحبه صاخبة، ومهما يكن عددهم كبيراً. وقد تعوّدت ألا أرقد طوال الليل، وكنت في حقيقة الأمر لا أسمعهم حتى لقد نسيت في النهاية وجودهم. إنني لا أستطيع أن أغمض عينيَّ قبل بزوغ الفجر، وذلك منذ سنة. لذلك أقضي الليل جالساً في الكرسي أمام المائدة لا أفعل شيئاً، (فأنا لا أقرأ إلا في النهار) حتى إنني لا أفكر في شيء، وإنما أدع لأفكاري أن تطوف متشردةً على ما يشاء لها هواها وتذوب الشمعة إلى آخرها. وقد جلست في هذه المرة إلى المائدة صامتاً، وتناولت المسدس، ووضعته قريباً من يدي. وتساءلت حين وضعته قريباً من يدي (أتذكر ذلك واضحًا): «أهذا مؤكَّد محقَّق؟». وسرعان ما أجبت نفسي بأنه مؤكّد، محقّق طبعاً، أي

بأنني سأنتحر لا محالة. كنت أعلم في تلك الليلة أنني سأقتل نفسي يقيناً، ولكنني كنت أتساءل عن المدة التي يجب أن أبقاها جالساً إلى مائدتي أنتظر اللحظة الأخيرة. ذلك أنني كنت لا أعرف تلك اللحظة على وجه اليقين. وما من شك عندي في أنني كنت سأنتحر تلك الليلة لولا أن لقيت في الشارع تلك البنت الصغيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

رغم أنني صرت لا أكترث بشيء، فقد بقيت إمرءاً حسَّاسا، ولو حساساً بالألم مثلاً. فلو ضربني أحد لتألَّمت وقولوا مثل هذا عن الألم النفسي. فإذا حدث لي شيءٌ محزن جداً شعرت بحزن كالذي كنت أشعر به من قبل، كما أنني لما أفقد بعد كل إكتراثي بكل ما في الحياة. فكذلك أحسست منذ قليل بشفقة: لقد كان في وسعي أن أغيث تلك البنت الصغيرة طبعاً. فما هو السبب في أنني لم أغثها؟ السبب هو تلك الفكرة التي إنبثقت في ذهني بينما كانت البنت تشدّني من كمي منادية مستنجدة؛ وهناك سبب آخر هو سؤال طرح نفسه عليَّ فجأة، ولم أستطع أن أجد له جواباً. هو سؤال لا نفع فيه ولا فائدة منه ولا طائل تحته، ولكنه أحنقني وأثار في نفسي غيظاً شديداً. ولقد جاء الغيظ من هذا التفكير المنطقي: إذا كنت قد قرّرت أن أبارح الحياة في هذه الليلة نفسها، فإن كل شيء في هذه الحياة يجب أن يمسي غير مثير لإكتراثي في هذه الساعة أكثر من أي ساعة مضت. فلماذا أحسست فجأة بأنني لست غير مكترث بشيءٍ، وأنني أرثي لحال تلك البنت الصغيرة وأشفق عليها؟ أذكر أنني رثيت لحالها وأشفقت عليها إشفاقاً شديداً، حتى إنني أسيت لها أسى لا يليق البتة بحالي. أعترف لكم بأنني لا أفلح في تصوير الإحساس الذي إجتاح نفسي حينذاك. ولكن ذلك الإحساس بقي في نفسي لا يغادرها. فلما جلست إلى مائدتي في غرفتي كنت في حالة من الغيظ والحنق أشدَّ من سابقتها. وأخذت الإستدلالات المنطقية تتعاقب في فكري ويتصل بعضها ببعض؛ فكنت أقول لنفسي: «من الواضح أنني إنسان، وأنني لست صِفراً، وما ظللت إنساناً، وما لم أستحل صفراً، فإنني أحيا، ويمكن إذاً أن أتألم وأن أغتاظ وأن أشعر بخزي من أفعالي. طيب. ولكن إذا إنتحرت، إذا إنتحرت بعد ساعتين مثلاً، ففيم يهمني شأن تلك البنت الصغيرة، وما فائدة ذلك الشعور بالخزي، وسائر ما عداه؟ سأكون قد إستحلت إلى صفر، إلى صفر مطلق. فهل يُعقل ألّا يكون لمعرفتي بأنني بعد قليل سأبارح الحياة مبارحة «تامة»، وأن كل شيء مثلاً لن يكون له وجود في هذا العالم، هل يُعقل ألا يكون لهذا أي تأثير لا في شعوري بالشفقة على البنت الصغيرة، ولا على شعوري بالخزي من الحقارة التي إرتكبتها؟ ذلك أنني حين قرعت الأرض بقدمي ناهراً زاجراً إنما أهنت البنت التعيسة. وهذه الحقارة الخالية من الشعور الإنساني قد إرتكبتها «لا لأبرهن على أنني أمسيت لا أحسّ بالشفقة فحسب، بل أيضاً لأن كل شيء سينتهي بعد ساعتين». قولوا لي بصراحة: هل تصدّقون أنني لهذا السبب إنما صرخت زاجراً؟ إنني من جهتي أميل إلى الإعتقاد بهذا. لقد كنت أتصور تصوُّرا واضحاً أشد الوضوح أن الحياة والعالم متوقِّفان عليَّ وحدي؛ حتى ليمكن أن أقول إنني كنت أتصوّر في تلك اللحظة إن العالم لم يُخلق إلا لي وحدي: فيكفي أن أهشِّم رأسي برصاصة حتى لا يبقى للعالم وجود بالنسبة إليَّ على الأقل. ناهيك عن أن من الممكن حقًّا ألّا يبقى للعالم وجود بالنسبة إلى أحد بعدي، وأن يزول العالم كله كزوال شبح متى زال إدراكي أنا، لأنه ليس إلّا إدراكي له، فمن الممكن أن يزول ما دام العالم كله وجميع الناس قد لا يكونون إلا أنا. أذكر أنني حين كنت جالساً إلى مائدتي كنت أستعرض هذه المسائل كلها واحدة بعد واحدة، وأرى فيها آراء جديدة، وأكتشف لها وجوهاً جديدة وجوانب جديدة. من ذلك مثلاً أن تصوراً غريباً قد عرض لفكري فجأة. قلت لنفسي: «هَبْني عشت في الماضي في القمر أو في المريخ، وهبني إرتكبت هناك عملاً من تلك الأعمال الشائنة البشعة إلى أبعد حدود البشاعة، هبني إرتكبت أحقر دناءة يتمثّلها الخيال، فصرت مجلَّلاً بخزي وعار رهيبين لا يتصور المرء مثلهما إلا حين يصيبه في نومه جاثوم

ثقيل؛ وهبني إستيقظت فجأة، فإذا أنا أجد نفسي على الأرض لا في القمر، ولا أزال شاعراً بما إرتكبته من أعمال مشينة بشعة حين كنت في الكوكب الآخر، ولكنني موقن يقيناً بأنني لن أعود إلى ذلك الكوكب الآخر في يوم من الأيام مهما يحدث، أفلا تستوي في نظري «جميع» الأمور في القمر حين آخذ أتأمله من على ظهر الأرض؟ أأشعر عندئذ بالخزي من ذكرى الجريمة التي إقترفتها؟ أسئلة لا طائل تحتها وليست في محلها، لا سيما وأن المسدس موضوع على المائدة أمامي، وأنني أعرف بكل جوانحي أن «الأمر» سيتم إنفاذه، ولكنها أسئلة تثير في جسمي حمَّى، وتبعث في نفسي أقصى الإضطراب. فكان يستحيل عليَّ نوعاً من الإستحالة أن أموت الآن، اللهم إلا أن أهتدي قبل ذلك إلى حل للمسألة. الخلاصة، إن تلك البنت الصغيرة قد أنقذتني من الإنتحار. لأنني بالإنتقال من سؤال إلى سؤال قد تجنَّبت طلقة المسدس. وفي أثناء ذلك كان كل شيء في غرفة الكابتن يسكن ويهدأ. فقد إنقطعوا عن اللعب بالورق، وتهيأوا للنوم، فلا يسمع المرء إلا بضع دمدمات من حين إلى حين، وإلا بعض الشتائم يتثاءب بها صوت وَسْنانٍ. وحينذاك إنما أخذني النوم فجأة، وذلك أمر لم يسبق أن حدث لي في يوم من الأيام قبل الآن، أمام المائدة في المقعد. نمت دون أن أحس بأنني نمت. والأحلام، كما لا يجهل أحد ذلك، أمرُها غريب كل الغرابة: فبعضها يعرض لك بكل ما فيه من حِدّة رهيبة، واضحاً مفصَّلا دقيقاً كدقة المصوغات حين تخرج من بين يدي الصائغ، وفي بعضها تجتاز الفضاء، وتخترق الزمان دون أن يخطر لك ذلك على بال. فمن الواضح أن ما يثير الحلم ليس هو العقل بل الرغبة، ليس هو الرأس بل القلب. ومع ذلك ما كان أبرع عقلي في الأحلام أحياناً! حتى إنه ليقوم فيها بأعمال عجيبة يستعصي تفسيرها. من ذلك مثلاً أن أخي وقد مات منذ خمس سنين، يظهر لي في الأحلام، ويشاركني أعمالي، فنعكف عليها مهتمين بها أكبر الإهتمام مشغوفين بها أشد الشغف، ومع ذلك لا يغيب عن بالي مرةً واحدة أثناء الحلم أن أخي ميت، وأنه مدفون. فكيف لا أحس بدهشة حين أراه جالساً بجانبي يشاركني عملي، مع علمي بأنه ميت؟ كيف يسهل على عقلي أن يقبل هذا كله؟ ولكن كفى! فلأحدّثكم الآن عن الحلم الذي رأيته. نعم، في تلك الليلة إنما رأيت ذلك الحلم، حلم اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني (نوفمبر).

بعض الناس يسخرون مني الآن قائلين إن ذلك ليس إلا حلماً. ولكن ألا يستوي أن يكون حلماً أو لا يكون حلماً، إذا كان هو الذي بلَّغني «الحقيقة». فما دمت قد رأيت الحقيقة إلى الأبد، فإن معنى ذلك أنني رأيتها فعلاً، فلا حقيقة سواها، سواء أجاءتني في الحلم أم إنكشفت لي في الحياة الواقعية. فليس يضيرني ألّا يكون ذلك إلا حلماً. إن هذه الحياة التي تضعونها في أعلى منزلة كنت أنا في تلك الليلة مستعداً لإنهائها بطلقة مسدس. أما حلمي، أما حلمي، فقد بلَّغني رسالة حياة جديدة، رحبة، منبعثة قوية.

اسمعوا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

قلت إنني نمت دون أن أشعر بأني نمت، وكأنني كنت لا أزال أفكر في تلك الأمور نفسها، وفجأةً حلمت بأنني تناولت المسدس وسدَّدته إلى قلبي مع بقائي جالساً، سددته إلى قلبي لا إلى رأسي، وكنت رغم ذلك قد قررت أن أطلق رصاصة في صدعي الأيسر. فبعد أن وضعت فوهة المسدس على صدري إنتظرت ثانية أو ثانيتين، ثم إذا بالشمعة والمائدة والجدار تهتز وتترنّح جميعاً فى آن واحد، فأسرعت أطلق الرصاصة في قلبي.

يحدث أحياناً في الحلم أن ترى نفسك ساقطاً من مكان عالٍ شديد العلو، أو أن ترى أنك تُطعن أو تُضرَب. ولكنك لا تحس بألم أبداً، اللهم إلا أن تكون قد لكمت بيدك حديد السرير مثلاً، فتحسّ عندئذ بألم فتستيقظ. وكذلك حدث لي في هذا الحلم؛ لم أشعر بأي ألم من إطلاق الرصاصة في قلبي، ولكن خيَّل إليَّ أنني أحس بنوع من صدمة، ثم زال كل شيء فجأة، ولبثت غارقاً في ظلمات رهيبة، وكأني قد صرت أعمى وأخرس، ثم ها أنا ذا مسجَّى تحت شيء صلب، قد إمتددت مقلوباً، لا أرى شيئاً ولا أستطيع أن آتي بأيسر حركة، والناس من حولي تسير وتصرخ، والكابتن يُرعد، والمؤجِّرة تُعول. وهؤلاء نفرٌ يداهمون غرفتي من جديد، وينقلوني مكشوفاً في تابوت، فأحس بالتابوت يترجَّح تحتي ويهتز، فأفكر في هذه الواقعة، ويدهشنى لأول مرة أن أتصوّر أنني مت، أنني مت حقاً. وصرت عالماً بموتي كل العلم، لا يساورني فيه شكّ ولا رَيْب. إنني لا أبصر ولا أتحرك. وإن كنت أحس وأفكر. على أنني سرعان ما ألفت هذه الحال وفقاً لمنطق الأحلام، وقبلت الواقع بغير مناقشة ولا جدال.

وها هم أولاء ينزلونني في الأرض ثم ينصرفون، فأبقى وحيداً، وحيداً كل الوحدة، ولا أستطيع أن أحرِّك من أعضائي عضواً. إنني قبل ذلك، أثناء سهري الليل، حين كنت أطلق لخيالي العنان، فأتصوّر كيف ستكون حالي في القبر، كنت لا أربط بهذا التصوّر على وجه الإجمال إلا الإحساس بالرطوبة والبرد. لذلك أشعر الآن ببرد شديد جداً، ولا سيما في أقصى أصابع رجليَّ، ولكنني لا أحس بشيء عدا هذا.

كنت مضَّجعا، ومن غريب الأمر أنني كنت لا أنتظر شيئاً، فأنا مسلَّم دون إعتراض بأن على الميت ألّا يتوقع حدوث شيء. ولكن الرطوبة شديدة. لا أدري كم إنقضى من الوقت لعل ما إنقضى من الوقت ساعة، أو لعله عدة أيام، أو لعلّه أيامٌ كثيرة. ثم إذا بقطرة كبيرة من الماء تسقط فجأةً من خلال غطاء التابوت على عيني اليسرى التي كانت مغمضة، ثم إذا بقطرة أخرى تسقط، وهكذا دواليك، في كل دقيقة تسقط قطرة. فأحس بغيظ عميق يكوي قلبي، ثم لا ألبث أن أشعر فجأة بألم جسمي في قلبي. قلت لنفسي : «هذا جرحي، هذه هي الرصاصة التي أطلقتها في صدري ... إنها ثاوية في قلبي ...».

وكانت قطرات الماء لا تزال تسقط دقيقة بعد دقيقة، وتقع على عيني المغمضة رأساً. فلم يسعني عندئذ إلا أن أنادي، ولكن ندائي لم يكن بصوت، لأنني جامد لا أتحرّك، وإنما كان ندائي بكياني كلّه، ناديت الحكم الذي يتصرّف في كل ما كنتُ ألعوبة بيده قلت له أياً كنت أنت - هذا إذا سلّمنا بأنك كائن، وبأنه يوجد أي شيء يمكن أن يُعقل وجوده سوى ما أنا ألعوبة بيده - ألا فلتسمح بألّا يحدث هذا هنا! إذا كنت تريد أن تنتقم مني بسبب إنتحاري الأحمق، فتوقع فيَّ هذه السخرية، وهذا البقاء السخيف بعد الموت، فإن التعذيب الذي تنزله بي، كائناً ما كان وبالغاً ما بلغ، لن يساوي أبداً الإحتقار الصامت

الذي سأحسّه، ولو إستمر هذا التعذيب آلاف السنين!». كذلك قلتَ ثم سكتّ. وإنقضت قرابة دقيقة في صمت عميق، حتى إن قطرة ماء قد سقطت، ولكنني كنت أعلم، كنت أعلم وأوقن يقيناً قويًّا راسخاً لا يتزعزع أن كل شيء لا بد أن يتغير في هذه اللحظة نفسها ولا ريب. وها هو ذا قبري ينفتح فجأة، أو قل لا أدري أهو قد فُتح أم هو قد ذاب، ولكنني أعلم أن كائناً غامضاً لا أعرفه قد أمسكني، ثم إذا نحن كلانا نطير في الفضاء. ورُدَّ إليَّ بصري على حين غرة، وكان الليل عميقاً ما رأيت ظلاماً كظلامه الحالك قبل ذلك أبداً، أبداً. لم أسأل ذلك الذي كان ينقلني. وإنما إنتظرت لائذا بكبريائي منطوياً على خيلائي. كنت مقتنعاً بأنني غير خائف، وكنت في نشوة من حماستي بعد خوفي. لا أذكر الآن كم طال طيراننا، ولا أستطيع أن أتصوّره: حدث ذلك كلّه كما يحدث دائماً في الحلم، حين يجتاز الحالم تخوم الزمان والمكان، مخترقاً كل قوانين الوجود والعقل، وحين لا يتلبث إلا على النقاط التي يرنو إليها قلبه. أذكر أنني أبصرت في الظلام نجمة صغيرة على حين فجأة. فلم أستطع أن أمسك عن سؤال صاحبي الذي كان يطير بي: «أهذا كوكب سيريوس»، مع إنني كنت أتمنى كثيراً أن أمتنع عن إلقاء السؤال عليه، فأجابني بقوله: «بل هذا هو الكوكب نفسه الذي لمحته بين السحائب حين كنتَ عائداً إلى بيتك». كنت أعلم أن هذا الكائن الذي يطير بي له مظهر إنسان. ومن غريب الأمر أنني لم أحبَّ هذا الكائن، حتى لقد كان يوقظ في نفسي كرهاً عميقاً له. لقد كنت أنتظر العدم المطلق، ومن أجل أن أصل إلى العدم المطلق إنما أنفذت رصاصة في قلبي، فما بالي أجد نفسي بين ذراعَيّ كائن ليس هو بالإنسان حتماً، ولكنه «موجود» قطعاً. قلت لنفسي: «لا بد إذاً أن هناك حياة آخرة تلي القبر!»، قلت لنفسي ذلك مدفوعاً بما في الحلم من خفَّة غريبة، وطيش عجيب، ولكن هذا لا ينفي أنني إحتفظت في قرارة قلبي بميزتي الأساسية، فقلت لنفسي: «إذا كان المقصود هو أن (أوجد) من جديد، وأن تحييني إرادة لا مفرَّ منها حياةً أخرى، فإنني لا أريد أن أكون مغلوباً، ولا أريد أن أذلّ». فقلت لصاحبي فجأة أسأله دون أن أستطيع كظم هذا السؤال الذي يشتمل على إعتراف كامل، حتى لقد شعرت من هذا الجبن بإبرة تثقب قلبي ثقباً: «أنت تعلم أنني أخشاك وأهابك، وهذا هو السبب في أنك تحتقرني». فلم يجب، ولكنني أحسست على الفور بأنه لا يحتقرني، وأنه لا يسخر مني، وحتى إنه لا يُشفق عليَّ، وأن رحلتنا تمتد إلى غاية مجهولة سرية لا شأن لأحد بها غيري، ولا تتعلّق إلا بي. فإزداد الرعب في قلبي. وإنتقل سكوت صاحبي إليَّ، ونفذ فيَّ حضوره الصامت مؤلماً بعض الألم. كنا قد توغّلنا في ظلمات لا قرار لها، وكانت الكواكب التي ألِفتها عيناي قد غابت عني منذ مدة طويلة. وكنت أعلم أن في آخر السماء نجوماً لن تصل أشعتها إلى الأرض إلا بعد ألوف السنين وملايين السنين. فلعلنا قد قطعنا تلك الفضاءات كلّها. كنت أنتظر شيئاً ما، وكانت نفسي زاخرة بحنين أليم يطعن القلب. وإني لكذلك إذا بعاطفة أعرفها كل المعرفة، عاطفة توقظ الماضي إيقاظاً قوياً عميقاً، تهز كياني كله على حين فجأة. لقد عدت أرى الشمس! كنت أعرف أن هذه الشمس التي أراها لا يمكن أن تكون شمسنا «نحن» التي ولدت أرضنا. وكنت أعرف أننا قد بعدنا عن شمسنا بعداً لا نهاية له، ولكنني كنت أدرك بيني وبين نفسي أنها شمس تماثل شمسنا مماثَلة مطلقة، فهي منها بمثابة الصدى، أو هي لها نظير. فغمر نفسي حنان كبير بثَّ فيها الحماسة: إن قوة الضياء الذي خلقني قد ترجَّعت في قلبي أحيَته، وأحسست بعودة الحياة، الحياة القديمة، لأول مرة منذ أن نزلت إلى القبر.

وهتفت أقول لصاحبي سائلاً:

- ولكن إذا كانت هذه هي الشمس، إذا كانت هذه شمسنا نفسها، فأين هي الأرض؟

فأراني صاحبي كوكباً يشبه زمرّدة براقةً في ظلام الليل. وكنا نتجه في طيراننا إلى ذلك الكوكب.

- ماذا؟ هل أمثال هذه العودات ممكنة إذاً في هذا الكون، وهل يمكن أن يكون هذا هو قانون الطبيعة؟ وإذا كانت هذه أرضنا، فهل يمكن أن تكون هي أرضنا نفسها ... أو أن تكون مثلها تماماً في الشقاء والفقر، وفيما نضمره في أنفسنا مع ذلك من حب لها وشغف بها إلى الأبد، هل يمكن أن تكون أرضاً تعرف كيف تحبِّب بها أبناءها، حتى أجدهم وأشدَّهم عقوقاً؟ كذلك هتفت أسأل صاحبي وأنا أرتعش بحُبٍّ لا يقاوَم، محمَّسا لهذه الأرض التي ولدت فيها ثم هجرتها. ومرت في خاطري بسرعة كسرعة البرق صورة البنت الصغيرة المُهانة المعذبة. قال لي صاحبي:

- ستعرف كل شيء.

وكان في كلماته ما يشبه أن يكون نبرة أسى.

ولكننا كنا ندنو من الأرض دنوًّا سريعاً، فكان حجمها يكبر في نظري، فلما أخذت أميِّز المحيط وحواشي أوروبا، إذا بغيرة غريبة تشتعل في قلبي، غيرة نبيلة مقدّسة. قلت لنفسي: «كيف يمكن أن يحدث هذا التكرار؟ وما جدواه؟ إنني أحب هذه الأرض التي غادرتها، ولا يمكن أن أحب سواها، هذه الأرض التي بقيتْ عليها لطخات من دمي حين عمَدتُ، أنا الإبن العقوق، إلى إنهاء حياتي برصاصة أطلقتها في قلبي. وما كففت في يوم من الأيام عن حب هذه الأرض قط، حتى في تلك الليلة التي ودّعتها فيها، بل لعلني كنت أحبها عندئذ حباً أقوى إستئثاراً بالنفس وأشد تقطيعاً للقلب من حبي لها في أي وقت مضى، هل الألم موجود على هذه الأرض الجديدة؟ لقد كنّا هناك في أرضنا لا نستطيع أن نحب إلا بألم، ولا نستطيع أن نحب إلا من خلال الألم. فنحن لا نحسن أن نحب إلا هذا الحب ولا نعرف حبًّا آخر. فأنا أطلب الألم لأستطيع أن أحب. ما أقوى شهوتي وما أشد ظمأي إلى أن أعانق تلك الأرض وحدها باكياً، تلك الأرض التي أحببتها وهجرتها، ولا أريد أن أعيش في أي أرض أخرى غيرها، بل أرفض أن أعيش في أي أرض أخرى غيرها! ...».

ولكن صاحبي كان قد تركني. وإذا أنا أجدني فجأةً على تلك الأرض الأخرى قبل أن يخطر ببالي ذلك، غارقاً في الضياء الساطع من يوم مشمس جميل كجمال الجنة فخيِّل إليَّ أنني هبطت إلى واحدة من تلك الجزر الصغيرة التي يتألّف منها على أرضنا أرخبيل اليونان، أو هبطت في مكان آخر على خرائب قارة بجوار الأرخبيل. كان كل شيء في تلك الأمكنة شبيهاً بما عندنا شبهاً تاماً. ومع ذلك كان كل شيء يشعّ منه نوع من الحبور والجذل والرصانة والأبهة، يقارب الروعة. وكانت مياه البحر كالزمرد تتكسّر تكسَّرا خفيفاً على الشاطئ، فتلاعبه ملاعبة فيها حب ظاهر واضح يشبه أن يكون واعياً. وكانت تنتصب في الفضاء أشجار باسقة، فارعة، تتألّق بغزارة نسغها، ووفرة أوراقها الصغيرة الكثيفة، ولا شك أنها كانت تحييني بحفيفها الرفيق اللطيف، وكأنها تتمتم لي بكلمات حب. وكان المرج يزدهي بدفءٍ عذبٍ لذيذٍ. وكانت الطيور تشق الهواء أسراباً، وتأتي إليَّ بلا خوف فتحط على كتفيَّ ويديَّ وهي تصفق بأجنحتها الراعشة صفقاً فرحاً. وأخيراً رأيت سكان تلك الأرض السعيدة جاؤوا إليَّ من تلقاء أنفسهم، وأحاطوا بي، وعانقوني وقبَّلوني. أبناء الشمس، أبناء شمسهم ... ألا ما كان أجملهم! ما رأيت في يوم من الأيام مثل هذا الجمال في الإنسان على أرضنا! قد تستطيع أن تلمح لدى الأطفال عندنا، في السنين الأولى من حياتهم، شيئاً يشبه أن يكون صورة باهتةً ضعيفة لهذا الجمال الذي رأيته في سكان ذلك الكوكب من البشر. إن أعين هؤلاء السعداء تشعّ ببريق صافٍ وضَّاء. وإن وجوههم تشرق بالحكمة والوعي، الوعي الذي بلغ كمال هدوئه وتمام رصانته. ولكن هذه الوجوه تظل فرحة، إن فرحاً كفرح الأطفال يرنو في أقوال هؤلاء البشر وفي أصواتهم! آ ... فهمت كل شيء، كل شيء من أول نظرة. هنا كانت الأرض قبل أن تدنِّسها الخطيئة الأصلية: إن

سكانها الذين لا يعرفون الشرّ يعيشون في هذه الجنة نفسها التي تتناقل الإنسانية كلها أن أجدادنا الجناة قد عاشوا فيها، مع فرق واحد هو أن الأرض هنا جنة واحدة بعينها في كل ركن من أركانها، وكل جهة من جهاتها. إزدحم حولي هؤلاء البشر الذين يضحكون ضحكة جذلى، وغمروني بملاطفاتهم، ومضوا بي إلى منازلهم، فكانوا جميعاً يريدون أن يغدقوا عليَّ الراحة إغداقاً، وأن يسكبوها لي سكباً. ولم يلقوا عليَّ أسئلة، فكأنهم كانوا يعرفون كل شي، وكأن نفوسهم لا تجيش فيها إلا رغبة واحدة: هي أن يمحوا بأقصى سرعة ما كان منقوشاً على وجهي من علائم العذاب والألم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

ها أنتم ترون مرةً أخرى: أي ضَير في أن يكون الأمر حلماً؟ إن حب هؤلاء الناس الأبرياء الرائعين قد أحدث في نفسي أثراً باقياً لا يفنى، وإني لأحس بأن حبهم لا يزال يغسل روحي بمياهه النقية من هناك إلى الأبد. ذلك أنني أنا قد عرفتهم، وأحببتهم، وتعذّبت وتألّمت لهم بعد ذلك! سرعان ما أدركت منذ اللحظة الأولى أنني في كثير من الأمور لا أفهمهم: لم أفلح مثلاً في أن أفهم أنا التقدمي الروسي الحديث، أنا البطرسبرجي العفن، أن من الممكن أن يكونوا هم العالمين بكل ما يعلمون من أمور كثيرة جاهلين بعلمنا نحن. ولكنني لم ألبث أن أيقنت أن علمهم علم كامل، وأنه يستند وينطبق على إدراكات تختلف عن إدراكاتنا كل الاختلاف، وأن تطلعاتهم تختلف عن تطلعاتنا كل الإختلاف أيضاً. إنهم بلا رغبة، وهم في هدوء نفوسهم وسكينتها، لا يتطلّعون إلى معرفة الحياة كتطلّعنا نحن إلى معرفتها، ما داموا قد بلغوا حالة الكمال. ولكن معرفتهم أعمق من علمنا وأسمى من علمنا، لأن علمنا نحن يحاول أن يشرح الحياة، ويجهَد أن يعرف الحياة ليعلّم الناس كيف يحيون. أما هم فليسوا في حاجة إلى علم ليعرفوا كيف يجب عليهم أن يحيوا، ذلكم ما أدركته من دون أن أفلح في فهم معرفتهم. لقد أروني أشجارهم فلم أستطع أن أفهم لماذا ينظرون إليها بحب يبلغ هذا المبلغ كله من القوة، وكيف يكلّمونها كأنهم يخاطبون أشخاصاً مثلهم. كانوا يكلّمون الأشجار فعلاً: إعلموا أنني لا أعتقد أن الأمر مشتبه عليَّ حين أقول إنهم كانوا يكلّمونها. نعم، لقد إكتشفوا لغة الأشجار. وإني لواثق أن الأشجار كانت تفهم عنهم ما يقولون. تلك كانت نظرتهم إلى الطبيعة. ومع الحيوانات كانوا يعيشون في سلام فلا يُلحقون بالحيوان أي أذى، ولا يصيبونه بأي ضَرّ، كانت الوحوش عزيزة على قلوبهم، وبالحب إنما روَّضوها وأنَّسوها وقد أروني النجوم وحدثوني عنها، فقالوا لي أشياء لم أستطع أن أفهمها، ولكنني مقتنع بأنهم كان بينهم وبين نجوم السماء تواصل وتفاهم، لا بالفكر والخيال، بل بواسطة حية. نعم، لم يفلح أولئك الناس في أن يجعلوني أفهمهم، وكانوا يحبونني من دون أن أفهمهم. ولكنني كنت أعلم في مقابل ذلك أنهم هم أيضاً لم يفهموني، ولذلك لم أكد أحدثهم عن أرضنا. كنت أكتفي في حضورهم بأن أقبّل الأرض التي يعيشون عليها، وكنت أنا نفسي أعشقهم عشقاً من دون أن أنطق بكلمة. وقد أدركوا ذلك، فتركوا لي أن أعشقهم ذلك العشق، لا يشعرون من هيامي بهم وإخلاصي لهم بحرِّج أو عار، لأنهم كانوا هم أنفسهم يزخرون حبًّا. وكانوا لا يتألّمون لي، حتى حين أقبّل أقدامهم، فإنهم يستجيبون لحبي بحب قوي عميق يملأ عليهم قلوبهم. وكنت أتساءل في بعض الأحيان مدهوشاً كيف أمكن طوال ذلك الوقت أن لا يسيئوا مرةً واحدةً إلى إنسان مثلي، ولا أن يوقظوا في نفسي شيئاً من عواطف الغيرة والحسد مرةً واحدة أيضاً؟ ساءلت نفسي مراراً كيف إستطعت، أنا الرجل المباهي الكذّاب، ألّا أحدِّثهم في يوم من الأيام عن معارف وعلوم كانت تخلو أذهانهم من أية فكرة عنها حتماً؟ كيف لم تساورني رغبة في إدهاشهم ولو حباً بهم وعطفاً عليهم؟ كانوا فرحين يمرحون ويطربون كالأطفال، مطوِّفين في أرجاء أحراجهم الرائعة وغاباتهم، صادحين بأغانيهم الجميلة. وكانوا يكتفون بطعام خفيف هو ثمار أشجارهم وعسل غاباتهم ولبن نعاجهم الوديعة. كانوا لا يحتاجون إلا إلى قليل من العمل لتأمين طعامهم وكسائهم. وكانوا يتبادلون الحب، وكان يولد لهم أولاد، ولكني لم أرَ عندهم في يوم من الأيام سورات تلك اللذة «القاسية» التي يتصف بها جميع سكان أرضنا تقريباً، جميعهم وكل واحد منهم، والتي هي ينبوع جميع خطايا إنسانيتنا تقريباً. كانوا يبتهجون لميلاد الأطفال

إبتهاجهم بضيوف جُدد وفدوا يشاركون فى عيد المسرّات هذا. لم تنشب بينهم مشاجرات قط، ولا رأيت فيهم الغيرة أبداً، حتى إنهم لا يعرفون معنى هذه الكلمة. كان الأولاد فيهم أولاداً للجميع، لأنهم كانوا أسرة واحدة. وكانوا لا يكادون يعرفون المرض، رغم أنهم يموتون، ولكن الشيخ منهم يموت موتاً هادئاً فكأنه يغفو وينام وقد أحاط به ذووه يباركونه ويبتسمون له، وهم أنفسهم يبتسمون هذه البسمة المضيئة حين يُحتضرون لم يتّفق لي مرة واحدة أن رأيت لديهم عند الموت لا حزناً ولا دموعاً، وإنما رأيت إزدياداً في الحب يبلغ حدَّ الوجد، وهو وجد هادئ رصين فيه كمال وفيه أمل. حتى ليقدِّر المرء أنهم يظلون على صلة بموتاهم بعد رحيل هؤلاء الموتى، وأن الموت لم يقطع ما كان بينهما من رابطة على الأرض. إنهم لم يكادوا يفهمون عني حين سألتهم عن الحياة الأبدية. ولكن كان واضحاً أنهم - على غير شعور منهم - كانوا يبلغون من الثقة بالحياة الأبدية والإطمئنان لها أنهم لا يلقون على أنفسهم هذا السؤال. ولم يكن لهم معابد، وإنما هم يحيون في تواصل دائم مع « الكلّ» العظيم. ولم تكن لهم ديانة، ولكنّهم كانوا يعلمون أنهم حين يرتوون من أفراح الأرض، ويشرفون على اجتياز حدود الطبيعة الأرضية، فإن الإتصال بين البشر - الأحياء منهم والأموات - وبين « الكل » العظيم سيكون أوسع وأرحب، فهم ينتظرون تلك اللحظة مبتهجين، بغير تعجّل ولا حنين، أو قل إنهم كمن بلغوا تلك اللحظة منذ الآن بنبوءات قلوبهم، فلا يفوتهم أن يتناقلوا هذه النبوءات. وهم في المساء، قبل أن يخلدوا إلى النوم، يحبون أن يستمعوا إلى غناء جوقات كاملة، والأغنيات التي يسمعونها تعبّر عن جميع الإحساسات التي عمرت قلوبهم في النهار الذي إنقضى، فهم بذلك يباركون ذلك النهار حين يودعونه، وإنهم يحتفلون بالطبيعة، بالأرض والبحر والغابات. ويحلو لكل منهم أن يؤلّف لغيره أغنيات، وأن يتغنّى كل منهم بالآخر كالأطفال، وأغانيهم بسيطة كل البساطة، ولكنها لصدورها عن القلب تؤثّر في القلوب. ثم إنهم لا يحبّون أن يلاطف بعضهم بعضاً في أغانيهم فحسب، بل في جميع ظروف الحياة في ما يبدو. إن نوعاً من حماسة، وهي شاملة متبادلة، تجعل كلاً منهم ممتلئاً بالآخر معجباً به محبًّا له. لقد عجزت تقريباً عن فهم تلك الأناشيد التي تشيع فيها الأبَّهة، وتترقرق فيها معاني الإنتصار. كنت أدرك ألفاظها، ولكنني لا أستطيع أن أنفذ إلى كل معناها. كان فكري لا يستطيع أن يرقى إلى هذا المعنى إن صحَّ التعبير. ولكن قلبي كان يتشبَّع به شيئاً بعد شيء من دون أن ينتبه إلى ذلك. كنت أقول لهم في كثير من الأحيان إنني قد سبق لي أن أحسست بهذا كلّه إحساس تنبؤ ؛ وإن هذا الحبور وهذا الفرح قد إنكشفا لي منذ أن كنت أعيش على أرضنا، وذلك في صورة حزن متزَع بالحنين، حزن يبلغ أحياناً حد الألم، وإنني قد تصورتهم جميعاً، هم وما هم فيه من مجدٍ، في أحلام قلبي وأحلام فكري، وإنني كثيراً ما عجزت أثناء حياتي على أرضنا عن تأمل غروب الشمس من دون أن أبكي ... وإن كرهي لسكان أرضنا كان يخالطه دائماً ألم خبيء. لماذا لم أستطع أن أبغضهم رغم أنني لم أحبَّهم؟ لماذا لم أستطع أن أمتنع عن أن أسامحهم وأعفو عنهم؟ لماذا ذلك الحزن في حبي لهم؟ لماذا كنت لا أحبهم من دون أن أكرههم؟ فكانوا يصغون إليَّ، فأرى أنهم لا يستطيعون أن ينفذوا إلى معنى كلماتي. ولكنني كنت لا آسف لقول ما أقول، لأنني كنت أعلم أنهم يفهمون حزني الذي يوقظه في نفسي فراق من فارقتهم! لا، لا، حين كانوا يرمقوني بنظرتهم الرقيقة المفعمة حبًّا، وحين كنت أحسّ في صحبتهم بأن قلبي يصبح بريئاً نقياً كبراءة ونقاوة قلوبهم، كنت لا آسف على أنني لا أفهمهم. وكنت إذا بلغت هذا الإحساس بالإمتلاء والكمال، تتقطّع أنفاسي وآخذ أصلّي لهم في صمت.

آه ... لاشك في أن جميع الناس سيضحكون الآن مني، وسيقولون إنه يستحيل على المرء أن يرى في الحلم تفاصيل تبلغ من الدقة ما تبلغه التفاصيل التي أسجّلها الآن، وإنني أثناء نومي ما رأيت ولا أحسست إلا ما كان يبعثه في قلبي هذياني. أما التفاصيل فإنما تخيّلتها أنا تخيُّلاً بعد أن إستيقضت. وحين كنت أعترف أن كل شيء لعله جرى على هذا النحو أيضاً فيا لله ما كان أشدَّ الضحك الذي كنت أثيره فيهم، وما كان أشد المرح الذي كنت ألقيه عليهم ! ... إذا صدق رأيهم، فإن الأمر لا يعدو أنني كنت متأثراً بإحساسات ذلك الحلم، وأن هذا التأثر هو الذي بقيَ في قلبي الجريح الدامي، أما الصور والأشكال التي رأيتها فيه، فقد كانت تبلغ من إتساق الكمال، وقوة السحر، وبراعة الجمال، وصدق الحقيقة أنني حين إستيقظت لم أملك القدرة على تجسيدها في أقوالي الضعيفة الهزيلة، فلم يسعها إلا أن تُمَّحى من فكري، فمن الجائز جداً والحالة هذه أنني إضطررت على غير شعور مني إلى أن أعيد بناء تفاصيلها بعد ذلك، مشوِّهاً لها بطبيعة الحال، ولا سيما بسبب تلك الرغبة القوية المشبوبة في أن أنقلها إلى الآخرين بأقصى سرعة كيفما إتفق. ولكن لماذا لا أصدِّق أن ذلك كله قد وقع فعلاً؟ نعم، لعل ما رأيته كان أكثر سطوعاً وتألقاً وفرحاً مما وصفت، ألف مرة. واعلموا أنني سأبوح لكم الآن بسرٍّ. لعل ما رأيته لم يكن حلماً. ذلك أنه قد حدث شيء، شيء فيه حقيقة تبلغ من الهول والفظاعة أن الأمر لا يمكن أن يكون قد رؤي في حلم. لنسلِّم أن هذا الحلم منشأه قلبي، فهل كان في إمكان قلبي أن يلقي الضوء على حقيقة ما حدث لي بعد ذلك، وهي حقيقة مريعة رهيبة. كيف كان يمكنني أن أتخيّل وحدي هذا الذي حدث، أو أن أحلم به في قلبي؟ هل يُعقل أن يستطيع قلبي الذي يشبه قلب طفل، وأن يستطيع فكري الباطل الذي تحرِّكه النزوة، أن يرتفعا إلى إكتشاف الحقيقة؟ إحكموا في الأمر بأنفسكم. لقد كتمت عنكم الأمر حتى الآن، ولكنني سأبوح لكم بالحقيقة كلّها في هذه اللحظة: إنني ... قد أفسدتهم جميعاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

نعم، نعم، إنتهيت إلى إفسادهم جميعاً! كيف حدث ذلك؟ لا أدري. ولكنني أحفظ ذكراه واضحة أشد الوضوح. إن حلمي الذي قطع ألوف السنين يترك في نفسي إحساساً بشيء متّصل غير منقطع. ولكنني أعلم أني أنا كنت سبب الخطيئة الأصلية. ومثل دودة خنزير مُعدية، أو مثل ذرة طاعون سارية تستطيع أن تنشر الوباء في مملكة بأسرها، كذلك أفسد حضوري بالعدوى أرضاً للمسرات والمباهج كانت قبلي بريئة طاهرة. تعلَّموا أن يكذبوا، وإستطابوا الكذب، وعرفوا جمال الكذب. لعل ذلك كلّه قد بدأ «بريئاً» كل البراءة، لعله بدأ مزاحاً أو غنجاً لا أكثر، فكان نوعاً من لعب هدفه التسلية، ولعله قد حدث بفعل ذرة من الذرّات حقًّا، ولكن ذرة الكذب هذه قد نفذت إلى أعماق قلوبهم فبدت لهم محبَّبة. وبعد ذلك بقليل ظهرت اللذة، وولَّدت اللذة الغيرة، وبعثت الغيرة على القسوة. آه ... لا أعلم! لم أعد أتذكّر! ولكني أعرف أن الدم لم يلبث أن إنبجس لطخة أولى، فدُهشوا، وإرتاعوا، وأخذوا ينأون بعضهم عن بعض، وأخذوا ينفصلون بعضهم عن بعض، وقامت فيهم أحلاف، ولكن أحلافهم الآن تعادي أحلافاً أخرى. وأخذت الملامات والمآخذ والتقريعات تُسمع. وعرفوا الخجل. وصار الخجل لهم فضيلة. ونشأ لديهم الشعور بالشرف، ورفع كل حلف رايته فوق رؤوس أفراده. وأخذوا يسيئون معاملة الحيوانات. فصارت الحيوانات تهرب منهم إلى أعماق الغابة، وتناصبهم العداء. وبدأ عهد جديد يمجِّد في الإنسان «الخصوصية» و«الفردية» و«الشخصية»، ويعلِّم الناس أن يفرِّقوا بين ما هو لي وما هو لك. وتنوَّعت اللغات. وتعلّموا الألم، وأحبّوا الألم، وتاقوا إلى الألم، وقالوا إن الحقيقة لا تُكتسب إلا بالألم. وظهر فيهم العلم. وغدوا أشراراً، فأخذوا عندئذ يتكلّمون عن الأخوَّة الإنسانية، وأدركوا تلك المعاني. وأمسوا مجرمين، فإبتدعوا عندئذ العدالة، وفرضوا على أفسهم قوانين كاملة تصون العدالة. ومن أجل أن يكفلوا لهذه القوانين أن تُحترَم، أوجدوا المقصلة. ولم يبقَ لهم مما فقدوه إلا ذكرى غامضة، حتى إنهم لم يشاؤوا أن يصدّقوا أنهم كانوا في الماضي بريئين سعداء. وصاروا يستهزئون بأن تكون سعادتهم الماضية ممكنة، وسموا تلك السعادة حلماً، بل غدوا لا يستطيعون أن يتمثّلوها في أشكال محسوسة، ولا أن يتصوّرها بأخيلة. ومن أغرب الأمور وأعجبها، أنهم مع ذلك، رغم فقدانهم إيمانهم بسعادتهم القديمة، ورغم أنهم سمَّوها حكاية مُريبة، ظل توقهم إلى إستعادة البراءة والسعادة يبلغ من القوة أنهم سجدوا أمام رغبات قلبهم، وألّهوا ذلك التَوْق، وشادوا معابد، ووجَّهوا الصلوات إلى فكرتهم، إلى «رغبتهم»، وهم يعلمون أنها لا يمكن أن تتحقق أبداً، ولكنهم لا يكفّون عن عبادتها بالصلوات والدموع. ومع ذلك لو كان في الإمكان أن يعودوا إلى حالة البراءة والسعادة تلك التي فقدوها، وأتيح لهم أن يستشفّوها فجأةً، وسُئلوا هل يريدون حقاً أن يعودوا إليها، فأغلب الظن أنهم كانوا سيرفضون. وقد أجابوا عن هذا بقولهم: «نحن كذابون، أشرار، ظالمون. ليكن. نحن نعرف ذلك. ونحن بسبب هذا نبكي ونتألم، ونُنزل في أنفسنا أنواعاً من التعذيب والعقاب، لعلها أسوأ من أنواع التعذيب والعقاب التي سينزلها فيها الدَيّان الرحيم، الذي سيحاسبنا والذي لا نعرف حتى اسمه. ولكننا نملك العلم، وبالعلم سنهتدي إلى الحقيقة، فنقبلها في هذه المرة واعين. إن المعرفة شيء يفوق العقل، وإن وعي الحياة. يفوق الحياة. العلم سيهب لنا الحكمة، والحكمة ستكشف لنا عن القوانين، ومعرفة قوانين السعادة هي فوق السعادة». ذلكم ما صاروا يقولونه. وبعد أقوال من هذا النوع كان كل واحد منهم يعود إلى حب نفسه حبًّا أشد أنانية لأنهم يستحيل

عليهم أن يفعلوا غير ذلك. هكذا بلغ كل فرد من الحرص على شخصيته أنه حاول أن يذل شخصية الآخرين، وأن يُخفِّضها بجميع الوسائل. أصبحت المسألة في نظره مسألة وجود وبقاء، وظهرت العبودية. حتى لقد وُجدت عبودية متطوّعة تطوُّعا. فالضعفاء خضعوا للأقوياء عن طواعية ورضى بشرط أن يساعدهم الأقوياء في سحق من هم أضعف منهم. وجاء هؤلاء الناس رجال عادلون صالحون، فكلَّموهم عن صلفهم وكبريائهم ذارفين الدموع، وعابوا عليهم أنهم فقدوا القصد والإعتدال والإتساق، وأنهم ضيَّعوا الخجل والخفر والحياء. فسخر الناس منهم، ورجموهم بالحجارة. وإنسكب دم القديسين على رحبات المعابد. وظهر في مقابل ذلك رجال آخرون تخيّلوا أن يعيدوا الإنسجام إلى البشر، فلا يكفّ الفرد عن أن يحب نفسه أكثر مما يحب غيره، ولكنه في الوقت ذاته لا يكون أمام غيره عقبة وحاجزاً، وبذلك يشترك الأفراد جميعاً في تأليف مجتمع يعيش فيه الناس كافةً في وفاق. وأوقدت نيران حروب كثيرة لفرض هذا المبدأ. ولكن هذا لا ينفي أن المقاتلين يؤمنون إيماناً قاطعاً بأن العلم والحكمة والشعور بالأمن الشخصي ستجبر البشر أخيراً على أن ينعقد إتفاقهم على إرساء قواعد مجتمع يسوده العقل، وهم لذلك - أعني «الحكماء» - يحاولون بإنتظار أن تتحقّق إقامة ذلك المجتمع الكامل أن يتخلّصوا من جميع أولئك الذين ليسوا علماء ولا يفهمون فكرتهم، حتى لا يكون هؤلاء عقبةً تقف في طريق إنتصارهم. ولكن عاطفة البقاء الشخصي ضعُفت بسرعة، فقام عهد المعتزّين بأنفسهم، المزهوّين بصفاتهم، الحريصين على لذّاتهم، الذين يطلبون بوضوح كامل أن يكون لهم كل شيء أو ألّا يكون لهم أي شيء. ومن أجل أن يحصلوا على كل شيء، وجب عليهم أن يلجأوا إلى الوحشية، فإذا لم تفلح الوحشية لجأوا إلى الإنتحار. ووجدت ديانات تدعو إلى عبادة اللاوجود، وتنادي بتدمير الإنسان نفسه نشداناً للراحة الأبدية في أحضان العدم. وتعب هؤلاء البشر أخيراً من عمل محموم وجهد مسعور، فحملت وجوههم آثار الألم، ولذلك أخذوا ينادون بأن الألم جَمال، لأن الفكر لا يولد إلا من الألم، أو لأن الألم ثمن الفكر، وأخذوا يمجِّدون الألم في أغانيهم. وصرت أتجول بينهم وأنا أعقف يديَّ حسرة عليهم، وأذرف العبرات حزناً لهم، ولكن لعلّني صرت أحبهم أكثر مما كنت أحبهم قبل ذلك، أيام كانت وجوههم خالية من الألم، وكانوا بريئين، وكانوا على ذلك الجانب كلّه من الجمال. وعدت أحب الأرض التي دنَّسوها أكثر مما كنت أحبها أيام كانت جَنّة، لا لشيء إلا لأن الألم ظهر فيها! وا أسفاه! كنت قد أحببت العذاب والحزن دائماً، ولكنني أحببتهما لنفسي، لنفسي وحدها، فكنت أبكي عليهم وأرثو لحالهم. وصرت أمدُّ إليهم ذراعيَّ مكروباً بائساً، أتَّهم نفسي وادينها وألعنها وأحتقرها. قلت لهم إنني أنا الذي صنعت هذا الشر كله، أنا وحدي، وإنني أنا الذي جلبت لهم الفساد والعدوى والكذب! وتضرعت إليهم أن يصلبوني، وعلّمتهم كيف يُصنع صليب. كنت لا أستطيع، كنت لا أقوى على أن أقتل نفسي، ولكنني أردت أن أحمل عنهم جميع آلامهم. كنت أتوق إلى الألم. كنت أتطلّع إلى أن أسكب في هذا الألم حتى آخر قطرة من دمي. ولكنهم كانوا لا يزيدون على أن يضحكوا مقهقهين، ولم يفتهم في النهاية أن يعدّوني مجنوناً، مجذوباً إلى عالم الغيب، مجنوناً صوفياً. وأعلنوا لي أخيراً أنني أخذت أبدو خطراً، وأنهم سيحبسونني في ملجأ للمجانين إذا أنا لم أسكت. فإجتاح نفسي عندئذ حزن بلغ من القوة أن قلبي إنقبض إنقباضاً شديداً، وأحسست أنني أموت ... وحينذاك، إستيقظت من نومي.

كان الفجر قد بدأ يتنفس، ولمَّا يطلع النهار بعد، ولكن الساعة تقارب السادسة. فتحت عينيَّ، فوجدتني جالساً على ذلك المقعد نفسه، وكانت شمعتي قد ذابت إلى آخرها. وكان كل شيء نائماً في غرفة جاري الكابتن. وكان الصمت مخيِّما حولي رغم ندرة الصمت في بيتنا.

إن أول شيء بدر مني هو أنني وثبت من مكاني وقد إعترتني دهشة شديدة أقصى الشدّة. لم يسبق أن حدث لي أمرٌ كهذا في يوم من الأيام.
ولا حدث لي (وهذه نقطة تفصيلية تافهة) أن غفوت جالساً على المقعد. وبينما أنا أهبُّ واقفاً وأثوب إلى رشدي، إذا بالمسدس الملقوم المهيّأ لإنطلاق الرصاصة منه يخطف بصري، ولكنني سرعان ما أقصيته عني. آ ... الحياة! الآن الحياة! ورفعت ذراعيَّ أبتهل إلى «الحقيقة» الأبدية، بل لم أبتهل، وإنما أخذت أبكي وقد أخذت حميَّا شديدة، حميَّا لا حدود لها، ترفع وجودي كله، وتسمو به. نعم، يجب أن أحيا وأن أبشِّر! ونذرت نفسي فوراً لرسالة التبشير، مدى الحياة طبعاً. سأمضي أبشِّر، أريد أن أبشِّر ... بماذا؟ «بالحقيقة»، ما دمت قد رأيتها، رأيتها بعينَيّ رأسي، رأيتها في كل مجدها!.
ومنذ ذلك الوقت إنما رحت أبشِّر! وما أكثر ما أحب أولئك الذين يضحكون مني! لعلني أحبهم أكثر مما أحب غيرهم. لماذا؟ لا أدري، ولا أستطيع أن أجد لهذا تعليلاً أو تفسيراً. ولكن ليس لهذا من شأن. المهم أنهم يروننني الآن أنني أسير في طريق خطأ، أو يتساءلون عما سأصير إليه وقد سرت في طريق خطأ. هذه حقيقة: لقد ضللت الطريق، وسيزداد الأمر سوءاً. لا شك في أنني سأغلط مراراً قبل أن أكتشف كيف يجب عليَّ أن أبشِّر، ما هي الأقوال وما هي الأفعال التي ينبغي أن تكون سبيلي إلى التبشير، لأن رسالة التبشير ليست بالأمر السهل. هذا كله أراه، أنا أراه رؤية واضحة وضوح النهار منذ الآن. ولكن إسمعوا من ذا الذي لا يضلّ الطريق؟ من ذا الذي لا يسير في طريق خطأ؟ ومع ذلك يسير الجميع ويتّجهون إلى غاية واحدة بعينها، من أحكم حكيم إلى أشرّ شرير. كل ما هنالك من فرق هو أنهم يسلكون إلى هذه الغاية الواحدة سبلاً مختلفة. تلك حقيقة قديمة. ولكن إليكم على الأقل هذا الأمر الجديد: إنني لن أستطيع أن أخدع نفسي كثيراً، لأني رأيت الحقيقة. رأيت، وصرت أعلم أن البشر يمكن أن يكونوا على جانب كبير من الجمال والسعادة من دون أن يفقدوا القدرة على أن يحبوا على هذه الأرض. لا أريد ولا أستطيع أن أصدِّق أن الشر هو الظرف الطبيعي السوي العادي لأفراد البشر. ومع ذلك فإنهم بسبب هذا الإعتقاد وحده إنما يسخرون مني ويتهكّمون عليَّ ولكن كيف يمكن أن لا يصدِّقني الناس؟ لقد رأيت الحقيقة. رأيتها رؤية، ولم أتخيّلها تخيلاً بالفكر. رأيتها رؤية، وغمرتني «صورتها الحية»، وملأت نفسي إلى الأبد. رأيتها في كمال مطلق يبلغ من التمام أنني لا أستطيع أن أصدق أنها لن توجد لدى البشر! فكيف أضلّ الطريق والحال هذه؟ وقد أتوه غير مرة، وقد أنطق بأقوال غريبة، ولكن ذلك لن يدوم مدة طويلة. إن الصورة الحية لما رأيته ستظلّ ماثلة في نفسي على الدوام، فتعرف كيف تقوِّم عَوَجي، وتسدِّد خطاي، وتوجِّهُ سَيري. وإني أمرؤٌ شجاع، وإن لي قوى نضرة، فلأمضينَّ مبشراً ولو ألف سنة. أرأيتم؟ لقد أردت أن أخفي عنكم في أول الأمر أنني أفسدت الجميع. وكان هذا الكتمان مني خطأ أول. ولكن «الحقيقة» همست تقول لي إنني أكذب، فصانتني من الإنزلاق، ووجهت مسيري. ماذا يجب أن نعمل لإقامة الجنة؟ لا أدري، لأنني لا أستطيع أن أعبِّر عن هذا بألفاظ. إنني منذ رأيت حلمي فقدت إستعمال الكلام، أو فقدت على الأقل إستعمال الأقوال الأساسية التي لا بد منها ولا غنى عنها، ولكن لن يهمني هذا. لسوف أمضي، ولسوف أقول كل شيء بغير كلال، لأنني قد رأيت بعينَيّ رأسي، وإن كنت لا أستطيع أن أصف ما رأيت. يقولون: «ما رآه هو حلم، هو كابوس، هو هلوسة ...». هيه ... ليس في هذا الكلام كله شطارة. وما أكثر إعتزازهم به مع ذلك! حلم؟ ما الحلم؟ حياتنا كلها! أليست حلماً؟ بل إني لأمضي إلى أبعد من ذلك فأقول: ليس يهمني ألّا تعود تلك الجنة بعد ذلك. بعد الآن أبداً، وليس يهمني أنها لم تعد موجودة (وأنا أدرك ذلك)، ولكني سأمضي أبشِّر بالجنة رغم كل شيء وما أبسط الأمر مع ذلك. إن من الممكن

أن يُعاد بناء كل شيء في يوم واحد، في «ساعة واحدة». وإنما المهم أن يحب الإنسان قرينه الإنسان كما يحب نفسه. ذلك هو الشيء الأساسي الذي هو كل شيء، ولا حاجة بنا إلى شيء آخر سواه: فمتى وفَّرتموه عرفتم على الفور كيف تبنون الجنة. على أن هذه حقيقة قديمة ما أكثر ما قرأها الناس وكرَّروها مليارات المرات! ولكن اسمعوا: إنها لم تغرس جذورها في النفوس، إنها لم ترسَخ في القلوب. لا يزال الناس يتصوّرون أن «وعي الحياة أعلى من الحياة. وأن معرفة قوانين السعادة أعلى من السعادة». وهذا بعينه ما يجب أن نكافحه. ولسوف أكافح يكفي أن يريد كل الناس حتى يتم بناء كل شيء.

أما تلك البنت الصغيرة، فقد وجدتها. وسأمضي إلى أمام. سأمضي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــاة

الفهرس..

حلم رجل مضحك

1- حكاية عجيبة

2

3

4

5